قيام دولة الخلافة العباسية

تنظيم الدعوة العباسية

لم يكن قيام دولة الخلافة العباسية مجرد بيعة خليفة دون آخر، أو انتقال الحكم من الأمويين إلى العباسيين في حكم المسلمين، ويعتبر هذا الحدث أكثر من مجرد تغيير في الأسرة الحاكمة. لقد كانت الثورة العباسية، وما نتج عنها من تغيير جذري في المجتمع الإسلامي، نقطة تحول هامة وفاصلة في هذا المجتمع، لازمته طوال العصر العباسي الأول.

وقد ثبت أن التنظيم العقدي في فترة التحضير للثورة ينم عن عبقرية فذّة في الإعداد والترتيب. لقد وضع العباسيون الأوائل نهجاً، في التنظيم السري، أضحىٰ مثالاً يُحتذىٰ. طبقته بعض الدول التي قامت في كنف الخلافة العباسية، كالفاطميين، بالإضافة إلى الحركات السرية التي قامت في بلاد المسلمين كالقرامطة. ويقوم هذا التنظيم على السرية المطلقة. وقد انتهج العباسيون الأوائل هذا الأسلوب السري على أثر الكوارث التي حلت بآل البيت طيلة العصر الأموي، وما عمدت إليه الدولة الأموية من القضاء على الحركات العلوية وعلى زعمائها بشكل خاص، بحيث لا تقوم لهم بعد ذلك قائمة.

وتقوم الدعوة السرية حول إمام من آل البيت يدير دفة هذه الحركات السرية، ويرعى هذه التنظيمات، ويوجه النقباء والدعاة ويقودهم[1]. وقد آلت الإمامة في هذا

التنظيم السري إلى بني العباس في فترة مرحلية بالغة الأهمية[1].

وأدرك الإمام محمد بن علي العباسي (١١٨ ـ ١٢٥ هـ)، الذي آلت إليه الدعوة العباسية، والذي سعى لنيل الخلافة؛ أن نقل حق الإمامة من بيت إلى بيت آخر لا بد أن يسبقه إعداد الأفكار، وتهيئة النفوس لتقبل الوضع الجديد، لذلك التزم جانب الحيطة والحذر حين طلب من أتباعه دعوة الناس إلى ولاية آل البيت دون تسمية أحد.

ومن مقره في الحميمة، أخذ ينظم الدعوة، ويدير شؤونها ويرسل الدعاة والنقباء إلى الجهات الملائمة وأهمها خراسان، وذلك عن طريق شبكة سرية متعددة الحلقات، حملت اسم «دعوة آل البيت» آخذاً بعين الاعتبار الحرص على إخفاء أطماعه نحو الخلافة. ولا ريب في أن ذلك قد خدع الكثيرين من مؤيدي الدعوة إذ ظنوا أنهم يعملون لذرية علي بن أبي طالب.

وتجلت مقدرته في وضع هيكلية التنظيم السري الذي قام على الشعارات الدعائية من اختيار مركز الدعوة وشعاراتها والأمصار التي تنطلق منها، وتحديد مقر الدعاة، ومهنتهم، وطريقة التعامل مع الناس.

فمن حيث مركز الدعوة، فقد اختار الحميمة، بفعل موقعها الجغرافي على خط القوافل التجارية وطريق الحج من جهة، كما أنها تقع بعيداً عن المسرح السياسي.

ومن حيث الشعار، فإنه نادى بشعار المساواة، والدعوة إلى الرضا من آل محمد، والإصلاح. وقد ساهم هذا الشعار في نجاح الدعوة عن طريق:

- اندماج الشعوب التي أسلمت في الدولة الإسلامية.
- ضمان تكتل الطالبيين وراء الدعوة.

ومن حيث الأمصار التي تنطلق منها الدعوة، فإن محمد بن علي أمر الدعاة بالتركيز على خراسان. وهذا يعني في واقعه التاريخي، العرب من مقاتلة ومستقرين، والموالي[1]. ويبدو أنه شعر بتأزم الوضع في خراسان واقترابه من الانفجار بفعل الصراعات القبلية وتذمر الموالي، فرأى أن مرو، وهي قصبة خراسان، هي المكان الملائم لاستقطاب الأنصار لجيش الثورة فأثبت بذلك أنه كان على تفهم تام للأوضاع السياسية، وتوزيع الولاءات السياسية في الأقاليم الإسلامية[2].

ومن حيث تحديد مقر الدعاة، فقد اتخذ الإمام العباسي الكوفة، المعروفة بالولاء لآل البيت. وهي تصلح لأن تكون حلقة الوصل بين الهاشمية في الحميمة وميدان الحركة في مرو، بفعل جوها الموالي للثورة، والمناهض للأمويين.

وقد أشار محمد بن علي على دعاته أن يتعاطوا مهنة التجارة لإخفاء هدفهم الدعائي عن السلطة، كما أوصاهم بنشر الدعوة بالحكمة.

وهكذا توفر للدعوة العباسية القيادة الفذّة والدعاة المخلصون والبيئة الصالحة.

أطوار الدعوة العباسية

مرّت الدعوة العباسية بطورين هامين:

الطور الأول

يبدأ هذا الطور في مستهلّ القرن الثاني للهجرة، وينتهي بانضمام أبي مسلم الخراساني إلى الدعوة، ويغطي الفترة الزمنية بين عامي (١٠٠ـ ١٢٨هـ/ ٧١٨ـ ٧٤٦م).

وقد تميزت الدعوة، في هذا الطور، بالسرية التامة، وخلوها من أساليب العنف، في الوقت الذي كانت فيه دولة الخلافة الأموية متماسكة.

نظَّم الدعوة في العراق ثلاثة دعاة هم: ميسرة العبدي، وهو مولى لعلي بن عبد الله بن العباس، وبكير بن ماهان، ويُعتبر أهم دعاة العراق، وأبو سلمة الخلّال الذي قاد الدعوة في الأعوام الخمسة الأخيرة قبل تسلُّم بني العباس السلطة.

أما في خراسان، فقد قامت الدعوة على أكتاف جماعة من الدعاة، أشهرهم أبو عكرمة السراج، مولى ابن عباس، ومحمد بن خنيس، وحيان العطار، وكثير الكوفي، وخدّاش البلخي، ونقيب النقباء سليمان بن كثير الخراعي.

ويبدو أن السلطات الحاكمة، علمت بأمر الدعوة، فطاردت الدعاة وقتلت بعضهم، كما أن بعضهم الآخر راح ضحية تطرفه كخداش البلخي.

وأحدث الإمام محمد بن علي العباسي تغييراً استراتيجياً هاماً في فحوى الدعوة حين خصَّصها لنفسه، وكشف ذلك لدعاته، على أن يبقى هذا الأمر وقفاً عليهم فقط دون العامة.

وتوفي الإمام محمد في عام (١٢٥ هـ/ ٧٤٣ م)، بعد أن قطعت الدعوة شوطاً بعيداً، وقد أوصى بالإمامة من بعده لابنه إبراهيم[١].

الطور الثاني

يبدأ هذا الطور بانضمام أبي مسلم إلى الدعوة العباسية، واستمر حتى عام (١٣٢ هـ/ ٧٥٠ م) وهو العام الذي سقطت فيه دولة الخلافة الأموية، وقامت دولة الخلافة العباسية.

تعرضت الدعوة العباسية، بعد وفاة الإمام محمد بن علي، إلى الاهتزاز بفعل قيام حركات شيعية مستقلة عنها، في خراسان، فخشي الإمام إبراهيم أن يفلت زمام الأمور من يده، وتكتسح هذه الحركات دعوته. لذلك قام ليعيد طاعة الخراسانيين العرب بشكل خاص، واستطاع، بنفوذه الشخصي، أن يستميل زعيمهم سليمان بن كثير الخزاعي الذي تمكَّن من إعادة التلاحم بين الجماعة الخراسانية، وبين الرئاسة في الحميمة.

تميزت الدعوة، في هذا الطور، باستعمال القوة لتحقيق هدفها. فبعد اتساع خلاياها، وتعمق جذورها في المجتمع الخراساني، أضحى لا بد لها من رئيس على

درجة عالية من الكفاءة، والمقدرة، يشرف على شؤونها، ويعد الخطط للتحركات المقبلة.

عرض إبراهيم الإمام، القيادة على نقيب النقباء سليمان بن كثير، وكان شيخاً مسناً، فاعتذر عن قبولها[١]، ثم عرضها على إبراهيم بن سلمة فاعتذر أيضاً[٢]. عندئذ اتخذ الخطوة الحاسمة، واختار أبا مسلم الخراساني[٣]، ممثلاً له في خراسان، فقلّده الأمر وأرسله إلى هناك[٤].

كان اختيار أبي مسلم خطوة موفقة وفاتحة مرحلة جديدة في استنهاض حياة الدعوة بفعل أن مولى يدير دفة الأمور في خراسان ذات النفوذ الفارسي الواضح، والمضطربة قبلياً، أجدر بالثقة من عربي حر. وتدل الرسالة، التي بعث بها الإمام إليه عندما ولاّه الشروع للعمل في خراسان، أن استمالة العرب اليمانية هو حجر الأساس ومفتاح النصر[٥]، فاستقامت أمور العباسيين في خراسان نتيجة جهوده السياسية والعسكرية، واستطاع هذا الرجل، بما تمتع به من كفاءات، أن يصبح الداعية العباسي

المتحكم في الشرق كله بعد أن اكتسب ثقة سليمان بن كثير[1].

هذا، وقد حفلت الأعوام الأربعة الأخيرة من حياة دولة الخلافة الأموية، (١٢٩ ـ ١٣٢ هـ/ ٧٤٦ ـ ٧٥٠ م)، بتطورات سريعة، شكّلت جذور الحياة العباسية، وتجلّت فيها مظاهر ضعف العنصر العربي بشكل عام، بفعل ما ساده من نزاعات وانقسامات حادة، وبرز خلالها ضعف الأمويين بشكل خاص، وشهدت عمليات تصفية النظام الأموي وظهرت القوى الجديدة من بين ركام المعارك على مرحلتين: مرحلة أبي مسلم الخراساني، ومرحلة قحطبة بن شبيب، وانتهت بقيام دولة الخلافة العباسية.

مرحلة أبي مسلم الخراساني

نزل أبو مسلم، فور وصوله إلى خراسان، في بلخ، ونال، بعد فترة قصيرة، ثقة سليمان بن كثير، ثم أخذ يدير الأمور بحكمة ودهاء، فراح يتنقّل في قرى الشرق، يحثُّ أهلها على الالتفاف حول الدعوة. وقد أصاب نجاحاً كبيراً في ذلك، فاستقطب الموالي بما صوَّر لهم من فساد الحكم الأموي، وأثارهم بما كانوا يعانونه من ظلم في ظله، ووعدهم بأنه سيجعلهم سادة، وسيملكهم الأرض، كما نجح في استمالة الدهاقنة وأهل الريف بتقريبه بين العقيدة الإسلامية والمعتقدات الشعبية، خاصة فيما يتعلق بمذهب تناسخ الأرواح[2]، ثم استقطب القبائل العربية اليمنية، وانضم إليه أهل التقادم المعروفين بمعارضتهم للنظام الأموي.

بعد أن اطمأن أبو مسلم إلى ما وصلت إليه الدعوة من القوة والانتشار، رفع تقريراً بذلك إلى القيادة في الحميمة. ومن جهته، أخذ الإمام إبراهيم بن محمد زمام المبادرة، فحدَّد تاريخ بدء التحرك، آخذاً بعين الاعتبار الظروف الداخلية لقوة الدعوة، والظروف الداخلية المتردية لدولة الخلافة الأموية.

وفعلاً، أعلنت الثورة في خراسان يوم الخميس في الخامس والعشرين من (شهر

رمضان عام ١٢٩ هـ/ شهر حزيران عام ٧٤٧ م) على يد سليمان بن كثير. فالتفّت شيعة العباسيين حول أبي مسلم، وقد اتخذوا السواد شعاراً في ملابسهم وألويتهم، ولما عرفوا بالمسودة[١].

وأقيمت في يوم عيد الفطر، في سفيذنج، أول صلاة لأنصار العباسيين[٢]، فتكشف أمرهم. وكان لا بد من الصدام مع القوات الأموية لتحديد الموقفين، السياسي والعسكري.

وعمد أبو مسلم إلى أسلوب المزج بين السياسة والقوة العسكرية، بهدف التفريق بين القوى الخراسانية[٣] ودفعها إلى الاصطدام حتى لا تتحد كلمتها، ويقوى أمرها، مما يشكل خطراً على الدعوة العباسية. فنجح بدهائه في الإبقاء على العداء بين الوالي الأموي على خراسان، نصر بن سيار، وخصومه، وتعاون مع جديع الكرماني ثم مع ابنه علي بعد ذلك، وشيبان الحروري للإطاحة بالأمويين، ثم زرع بذور الشقاق بين الوالي الأموي وزعماء القبائل. وتخلّص أخيراً من شيبان الحروري وابني الكرماني علي وعثمان.

وهكذا تحرك أبو مسلم على كافة جبهات القوى السياسية[٤]. ونجح في قطف ثمار جهوده بالقضاء على خصومه، والتفرد بحكم خراسان، وفرّ نصر إلى نيسابور[٥].

وعمد الزعيم الخراساني، بعد أن ثبّت أقدامه في المناطق التي سيطر عليها، إلى التخلص من الزعماء البارزين الذين اعتبرهم منافسين له على الزعامة. فقتل سليمان بن كثير الخزاعي، نقيب النقباء، كما قتل ابنه محمد[٦]، وتخلص من عدد من أنصار

الثورة الذين شاركوه في العمل السياسي والعسكري.

وخلا بذلك، الجو لأبي مسلم، وأضحى الحاكم الأوحد لبلاد المشرق، واتخذ لنفسه لقب «أمير آل محمد»[1] وهذا يعني أنه اعتبر نفسه أكثر من مجرد والٍ على مقاطعة.

تجلّت خلال حرب خراسان قدرات أبي مسلم العسكرية والسياسية والإدارية، تلك القدرات الكبيرة التي تجمّعت لهذا الوالي والتي جعلته من بين أعظم القادة العباسيين.

وأضحى هذا الرجل، بعد أن تقرّب من سكان البلاد المحليين أمل الموالي الذين تطلعوا إليه، وتوسموا فيه القدرة لرد اعتبارهم، وإحياء الإرث الفارسي القديم ويمكن اعتباره مقدمة لظهور البرامكة والطاهريين والبويهيين، واضعاً بذلك أسس الدولة الخراسانية.

مرحلة قحطبة بن شبيب

ما كادت الثورة العباسية تستقر في خراسان، وتتهيأ القيادة فيها لتسديد الضربة الأخيرة لنصر بن سيار، المتقهقر إلى نيسابور، ومعه أنصاره من العرب من قبائل تميم وبكر وقيس، حتى نُقلت قيادة العمليات العسكرية من أبي مسلم إلى قحطبة بن شبيب الطائي بأمر من الإمام إبراهيم بن محمد[2].

ويبدو أن القيادة العليا في الحميمة تطلعت إلى ما وراء خراسان من أحداث، ورأت ألا يتجاوز أبو مسلم هذه المنطقة، وأن العمليات العسكرية في المناطق العربية لا بد أن تُسند إلى قيادة عربية.

سيطر قحطبة على طوس ونيسابور[3]، وأدرك نصر، من جانبه، استحالة المقاومة واستعادة السلطة، فهرب من نيسابور إلى الري[4].

ذعرت الحكومة المركزية في دمشق من هذه التطورات السريعة في خراسان، فأرسلت الجيش تلو الجيش للقضاء على قوة الثورة، إلا أنها فشلت في مهمتها. فاستسلمت المدن مثل أصفهان ونهاوند وغيرهما[١]، وأضحت الطريق، إلى العراق، مفتوحة أمام جيش الثورة. ومات نصر بالري في جو الهزيمة القاتم دون أن يكسب معركة[٢]. وفقد الأمويون بموته قائداً كبيراً يقودهم في هذا الصراع الدامي مما أثّر على قضيتهم تأثيراً سلبياً.

واندفع قحطبة بجيشه نحو الكوفة في جو الانتصارات، في الوقت الذي كان فيه يزيد بن هبيرة، الوالي الأموي على العراق، يتحرك نحوه، فجرت بينهما معركة انتهت بانتصار قحطبة. وتقهقر ابن هبيرة إلى واسط وتحصّن بها. لكن قحطبة لم يعش ليرى النتيجة النهائية، فقد غرق وهو يعبر النهر[٣] وخلفه ابنه الحسن في زحفه الظافر ودخل الكوفة في الرابع عشر من (شهر محرم عام ١٣٢ هـ/ ٧٤٩ م) واعترف بأبي سلمة الخلال رئيس دعاة العراق وزيراً لآل محمد، وقد أضحى صاحب السلطة الفعلية[٤].

وبهذا تقرر مصير العراق. وكان استقرار الثورة في هذا البلد، بعد المشرق، كسباً عظيماً بحيث أضحى من الممكن أن تظهر الدعوة، وأن يعرف الخراسانيون إمامهم من آل محمد[٥].

اعتلاء بني العباس السلطة

كان أبو مسلم على اطلاع دائم بما كان يجري في العراق، عن طريق مندوبه السياسي أبي الجهم بن عطية، الذي رافق جيش قحطبة، وكانت له هيمنة على القوى المسلحة. وقد اعترف به أبو سلمة الخلّال وأقرّه في منصبه السياسي هذا.

أما أبو سلمة، فقد كان مسؤولاً عن الكوفة بوصفه «وزير آل محمد»[٦]، وهو

منصب ولقب استحدثا حديثاً[1]. ونستنتج من طبيعة المهام التي كان يمارسها، والمسؤوليات الملقاة على عاتقه، في هذه الفترة، أنه كان صاحب الأمر والنهي. وقد اعترف بسلطته هذه جميع أنصار الثورة، لكن سيطرته على الجيش لم تكن كاملة، وقد بقيت في يد أبي الجهم.

وبعد سيطرة أنصار الثورة على الوضع في العراق، حان الوقت لاختيار الشخص من آل محمد الذي أعلنت الثورة باسمه، وكان اسم إبراهيم الإمام هو الشائع. لكن هذا التداول كشف عنه الغطاء، وسهّل لبني أمية اكتشاف الصلة بينه وبين الثورة. لذلك قبض عليه مروان الثاني، وسجنه في حرّان، ثم قتله في (شهر محرم عام ١٣٢ هـ/ شهر أيلول عام ٧٤٩ م)[2]، وتؤكد الروايات أن الإمام إبراهيم نعى نفسه إلى أهل بيته أثناء القبض عليه، وأوصى إلى أخيه أبي العباس عبد الله بن محمد، وجعله الخليفة بعده، وأمرهم بالمسير معه إلى الكوفة، وأخبر أصحابه، قبل موته، بهذا الاختيار[3].

وعندما وصل آل العباس إلى الكوفة، بعد دخول جيش الثورة إليها، أنزلهم أبو سلمة في دار الوليد بن سعد، مولى بني هاشم، وأمرهم بالاختفاء. وكتم أمرهم عن جميع القادة والشيعة نحواً من أربعين ليلة، ورفض أن يدفع لهم نفقات الانتقال[4]، وكتب في الوقت نفسه، إلى زعماء آل البيت من بني علي بن أبي طالب يعرض عليهم إمارة المؤمنين بشروط محددة[5]. والراجح أنه عزم على تحويل الأمر إلى آل علي عندما بلغه خبر موت الإمام إبراهيم بن محمد، لكن هؤلاء اعتذروا عن قبول الدعوة[6].

ولنا أن نتساءل: ما هي مبررات أبي سلمة في تحويل الخلافة إلى بيت علي بن

أبي طالب؟ وما هي الشروط التي وضعها لتسلم هذا المنصب؟

يبدو أن وزير آل محمد لم يأخذ وصية الإمام إبراهيم لأخيه أبي العباس مأخذ الجد، أو على الأقل، فإنه لم ير أن أبا العباس هو أصلح الهاشميين لتولي إمارة المؤمنين.

لكن مما لا شك فيه، أن هذا الرجل كان واقعاً تحت ضغط الأحداث السياسية المتعددة الاتجاهات، كان أشهرها الاتجاه العلوي، والاتجاه الخراساني، والاتجاه القومي الفارسي المقنع، فكان عليه أن يختار شخصاً مقبولاً من كافة الأطراف، خاصة وقد بدا الفرق واضحاً في وجهات النظر بين الاتجاهين الأولين بشأن صلاحياته[1].

ويُفهم من تحوله إلى آل علي، أنه استنتج من خلال الظروف السياسية المحيطة به، ومن توقعاته للمستقبل، أنه قد لا يحقق تطلعاته السياسية في ظل الحكم العباسي. ويبدو أنه كان يمثل بعض الزعماء الخراسانيين الفرس، ذات الاتجاه القومي المقنع، فأراد أن يحوِّل الأمر إلى الطالبيين بحيث يكون له الفضل في نقل السلطة إليهم طمعاً في تحقيق أهدافه المتمثلة في إحياء الأماني القومية للفرس[2].

ونتيجة لهذا الاختلاف في النظرة السياسية والعقدية، ظل أبو سلمة زهاء شهرين متهمكاً في البحث عن الرضا من آل محمد يكون مقبولاً من الجميع من جهة، ويرضى بهذا المنصب على شروط الخراسانية التي جعلت من الصعب، وربما من المستحيل، وجود الشخص الذي يقبل بهذا العرض، من جهة أخرى، لذلك كان رفض زعماء آل البيت يصب في هذا الاتجاه[3].

وأخيراً فرضت الخراسانية مرشحها العباسي، أبا العباس عبد الله بن محمد أميراً للمؤمنين، فبويع له بالخلافة يوم الجمعة (الثاني عشر من شهر ربيع الآخر عام ١٣٢ هـ/ شهر تشرين الأول عام ٧٤٩ م)[4] والجدير بالذكر، في هذا المقام، أن

تاريخ خلافته يبدأ بعد مقتل مروان الثاني، آخر الخلفاء الأمويين، لثلاث بقين من شهر ذي الحجة من العام الهجري المذكور، الموافق لشهر تموز عام ٧٥٠ م، وهو تاريخ قيام دولة الخلافة العباسية.

ولم يكن أمام أبي سلمة، الذي تمَّ الأمر دون علمه، إلا أن يقبل بالأمر الواقع مبرراً موقفه أمامهم: «إني إنما كنت أدبر استقامة الأمر وإلا فلا أعمل فيه شيئاً»[١].

ويبدو أن أبا مسلم قد استُشير في الأمر قبل حدوثه ووافق عليه، بدليل أن مندوبه السياسي أبا الجهم قام بنشاط ملحوظ في اختيار أبي العباس[٢].

الاتجاهات العامة لدولة الخلافة العباسية

انتهجت دولة الخلافة العباسية، منذ قيامها، سياسة مشرقية واضحة، وتطلعت بوجهها إلى خراسان مهد نشأتها. وجاء هذا التحول نتيجة عدة عوامل لعل أهمها:

- مناوأة أهل الشام للعباسيين، لأنهم كانوا لا يزالون على ولائهم للأمويين.
- انتقال العاصمة من دمشق إلى بغداد.
- التأثير الفارسي على النظم والحياة االعباسية.
- انتعاش التجارة المشرقية.
- ابتعاد الدولة العباسية عن عالم البحر الأبيض المتوسط.
- عدم اهتمام العباسيين بإنشاء أسطول بحري في المتوسط يضارع الأسطول الأموي.

مما لا شك فيه أن انتقال الخلافة من الأمويين إلى العباسيين قد صحبه تغيير جذري، وتطور واسع وعميق في مجمل الحياة الإسلامية، وقد تجلّى ذلك في الاتجاه العام للخلافة العباسية، وتمثّل في بادىء الأمر، بنقل العاصمة من دمشق إلى بغداد، مشكّلاً بذلك خطوة نوعية في الانتقال من العالم البيزنطي إلى العالم الفارسي.

هذا وقد تراجع النشاط الحربي الكبير الذي شهده العصر الأموي على الجبهة الغربية في عالم البحر المتوسط، ونظر العباسيون إلى شواطئه على أنها حدود، ونهايات

لدولتهم، ينبغي الدفاع عنها لا الهجوم منها. ونتيجة لهذا التراجع تولت الإمارات الإسلامية في المغرب والأندلس مسؤولية الدفاع عن الحوض الغربي لهذا البحر.

وانصرف العباسيون، بشكل عام، نحو الشرق. ففي تركستان، أوقفوا الخطر الصيني الزاحف على ديار المسلمين، ثم سادت علاقات وثيقة بعد ذلك، مع العالم الصيني، خاصة التجارية، وتوسع المسلمون في إقليم السند، ووطدوا النفوذ الإسلامي هناك.

ونمت البحرية الإسلامية في المحيط الهندي، لتؤدي دوراً تجارياً، فأتاح ذلك لتجارة الهند أن تدخل أسواق العراق بطمأنينة، كما أتاح للثقافة الهندية أن تواكب التجارة. وقد أدى تفاهم العباسيين مع الصين إلى فتح أسواق الشرق الأقصى أمام تجارة متبادلة غنية، كما أدى تفاهم العباسيين مع ملوك الفرنجة إلى إتاحة الفرصة لتجارتهم أن تمتد إلى غربي أوروبا وشمالها الغربي، إلا أن التركيز اقتصر على الشرق.

نتج عن انتقال العاصمة والابتعاد عن الاهتمام بالشؤون الغربية، أن ضعف النفوذ العباسي في المغرب الإسلامي مما أدى إلى انفصال تلك الأطراف الغربية عن السلطة المركزية، فاستقلت الأندلس على يد عبد الرحمن الداخل الأموي، وانفصل المغرب الأقصى على يد الأدارسة العلويين، واستقل بنو رستم، الخوارج الأباضية بالمغرب الأوسط، واكتفى العباسيون بإقامة دولة حاجزة موالية لهم في المغرب الأدنى هي دولة الأغالبة.

وحمل العصر العباسي معه تطوراً آخر. فقد جمع العباسيون السياسة مع الدين. وهم في هذه الناحية يختلفون عن الأمويين الذين اتهموا بالاهتمام بالمصالح الدنيوية، فأعلنوا أنهم يريدون إحياء السنة وإقامة العدل. فأحاطوا أنفسهم بالعلماء والفقهاء، وارتدوا بردة الرسول ﷺ كرمز لسلطتهم الدينية، واستغلوا فكرة المهدي حتى أضحت شعارهم الديني والسياسي. واعتمدوا على نظرية الإمامة التي كانت محور عقيدتهم ودعوتهم. وقد أعطت هذه السياسة الدينية، للخلافة العباسية، مسحة من القداسة بحيث أضحى سلطان الخلفاء مستمداً من الله سبحانه وتعالى[1]، وأضحى مفهوم الخلافة شبيهاً بمفهوم الحق الإلهي في الحكم، الذي ساد أيام الساسانيين.

واتبع الخلفاء العباسيون بعض العادات الفارسية مثل: الاستئثار بالسلطة، الاحتجاب عن الناس، الظهور وسط حرس وحاشية؛ فنشأت نتيجة ذلك وظيفة الحجابة. كما وُجدت طريقة خاصة للتسليم على الخليفة مثل: الانحناء، تقبيل الأرض أو ذيل الثوب. وقد خالف العباسيون بذلك الروح العربية السمحة التي ظلّلت حياة الأمويين.

وتأثرت حياة الخلفاء، وأساليبهم في العمل، وطريقتهم في الحكم، بالأساليب الفارسية، وطغت على نظمهم الإدارية تقاليد الديوان الفارسي، كما شهد بلاطهم قيام الخدم والجواري.

ومن التأثيرات الفارسية التي دخلت العصر العباسي، منصب الوزارة. وأضحى للوزير من حيث المظهر والاختصاص والتسمية طابع جديد لم يكن من قبل. ويلاحظ أن معظم الوزراء العباسيين كانوا من أسر فارسية، كالبرامكة، وبني سهل، وبني طاهر، وبني الفرات، وبني خاقان وغيرهم. واتبع الوزراء والكتّاب ورجال الدولة التقاليد الفارسية القديمة في العمل والمراسلات.

تقسيم تاريخ دولة الخلافة العباسية

حكمت دولة الخلافة العباسية قرابة ٥٢٤ عاماً: (١٣٢ ـ ٦٥٦ هـ/ ٧٥٠ ـ ١٢٥٨ م)، وابتدأت بأبي العباس السفاح وانتهت بوفاة المستعصم، حيث زالت على أيدي المغول. ولم تكن هذه الفترة الزمنية على نمط واحد من حيث قدرات الدولة وقوة الخلافة.

اصطلح المؤرخون على تقسيم تاريخ دولة الخلافة العباسية إلى أربعة عصور وفقاً لقدرات الخلافة، وتطور أوضاعها السياسية وازدهار الحياة الثقافية والفكرية، وهي:

العصر الأول:
هو عصر القوة والتوسع والازدهار (١٣٢ ـ ٢٣٢ هـ/ ٧٥٠ ـ ٨٤٧ م)

العصر الثاني:
هو عصر النفوذ التركي (٢٣٢ ـ ٣٣٤ هـ/ ٨٤٧ ـ ٩٤٦ م)

العصر الثالث:
هو عصر النفوذ البويهي الفارسي (٣٣٤ ـ ٤٤٧ هـ/ ٩٤٦ ـ ١٠٥٥ م)

العصر الرابع:

هو عصر النفوذ السلجوقي التركي (٤٤٧ ـ ٦٥٦ هـ/ ١٠٥٥ ـ ١٢٥٨ م)

العصر العباسي الأول: ١٣٢ ـ ٢٣٢ هـ/ ٧٥٠ ـ ٨٤٧ م

ابتدأ هذا العصر بخلافة أبي العباس السفاح وانتهى بخلافة الواثق، وتميز بقوة الخلافة واستقلالها التام، وتركيز السلطات العليا في الدولة بيد الخلفاء الذين تمتعوا بقدرات شخصية وسياسية وإدارية فذّة، استطاعوا من خلالها المحافظة على وحدة الدولة، وإخماد الفتن والثورات التي قامت في وجهها.

تمتع الفرس في هذا العصر بمكانة مرموقة في الدولة، وكان لنفوذهم الواسع تأثير كبير في توجيه سياستها، حتى سيطروا أخيراً على الجهازين الإداري والعسكري في بغداد والأقاليم الخاضعة لنفوذها، فأحكموا قبضتهم على قيادة الجيوش والمناصب الإدارية الكبرى كالوزارة والكتابة والولاية على البلدان[1].

وكان أفراد الجيش عوناً للخلافة، وأداة طيعة في يد الخلفاء. وقد ختم هذا الدور بانتهاء عهد الخلفاء الذين كانوا يقودون الجيوش بأنفسهم، ويخوضون غمرات الموت ولا يستسلمون لداعي الترف المضني.

ومثّل هذا العصر الزاهي كل من الخلفاء: أبو العباس، المنصور، المهدي، الهادي، الرشيد، الأمين، المأمون، المعتصم والواثق.

العصر العباسي الثاني: ٢٣٢ ـ ٣٣٤ هـ/ ٨٤٧ ـ ٩٤٦ م

ابتدأ هذا العصر بخلافة المتوكل، وانتهى خلال عهد المستكفي، وتميز بضعف الخلافة وسقوط هيبتها شيئاً فشيئاً، حتى تجرأ أمراء الأطراف بالتخطيط للانفصال عنها. وأحكم الأتراك، في هذا العصر، قبضتهم على أجهزة الدولة. ومنذ عهد المتوكل، بدأ الانحلال يتسرب إلى جسمها بفعل ازدياد نفوذهم. وكان هذا الانقلاب،

من الحكم العربي إلى الحكم التركي، مظهراً من مظاهر الثورة التي شعر بها معظم أجزاء الخلافة وأدت إلى إضعاف سلطة الخليفة ثم تلاشيها في النهاية[١].

وازداد ضعف الخلفاء في هذا العصر بفعل تفاقم خطر الدول المستقلة التي انفصلت عن جسم الخلافة. فقد قويت شوكة علي بن بويه في فارس. ووقعت الري وأصفهان والجبال في يد أخيه الحسن بن بويه. واستقل الحمدانيون بالموصل وديار بكر وديار ربيعة ومضر. واستقل محمد بن طغج الأخشيد بمصر والشام، واستحوذ نصر بن أحمد الساماني على خراسان.

تقلصت، نتيجة ذلك، رقعة دولة الخلافة، ولم يبقَ في أيدي الخلفاء إلا العراق وبعض مناطق فارس والأهواز. إلا أن هذه الأقاليم التي ذكرت كانت تسودها الاضطرابات والفتن. وآل الأمر إلى أن يتولى بغداد مملوك تركي أو ديلمي يطلق عليه اسم «أمير الأمراء» له النفوذ التام والسلطان المطلق والولاية العامة وليس للخليفة من الأمر شيء[٢].

إلا أن الخلافة استعادت في الفترة بين عامي (٢٥٦ ـ ٢٩٥ هـ) قدراً كبيراً من سلطتها وتشمل عهود الخلفاء، المعتمد والمعتضد والمكتفي. وقد أطلق على هذه الفترة اسم «صحوة الخلافة»[٣].

ومثّل هذا العصر كل من الخلفاء: المتوكل، المنتصر، المستعين، المعتز، المهتدي، المعتمد، المعتضد، المكتفي، المقتدر، القاهر، الراضي، المتقي، والمستكفي الذي ملك بنو بويه في عهده.

العصر العباسي الثالث: ٣٣٤ ـ ٤٤٧ هـ/ ٩٤٦ ـ ١٠٥٥ م

ابتدأ هذا العصر أثناء خلافة المستكفي، وانتهى أثناء خلافة القائم، وتميّز بارتباطه بتاريخ البويهيين الذين كانوا أصحاب النفوذ الحقيقي والسلطان الفعلي في

العراق. ولم يكن للخليفة إلا الاسم، وأضحى وكأنه موظف عندهم، يتناول منهم ما يقيم به أوده وليس له حق التصرف في أي أمر من أمور الخلافة دون الرجوع إليهم وأخذ موافقتهم.

لقد فقد الخليفة نفوذه في هذا العصر يؤمر فيأتمر، ويفعل ما يُطلب منه وليس له عليهم من سلطان ديني لمخالفتهم له في المذهب، فقد كانوا شيعة غلاة، إنما ارتضوا ببقاء منصب الخلافة خدمة لأغراضهم.

وقد وصف البيروني أوضاع العباسيين في أيام بني بويه في هذه العبارة: «وإن الدولة والملك قد انتقل في آخر أيام المتقي وأول أيام المستكفي من آل العباس إلى آل بويه، والذي بقي في أيدي الدولة العباسية إنّما هو أمر ديني اعتقادي لا ملك دنيوي»[1].

ومثّل هذا العصر كل من الخلفاء: المستكفي، المطيع، الطائع، القادر والقائم.

العصر العباسي الرابع: ٤٤٧ ـ ٦٥٦ هـ/ ١٠٥٥ ـ ١٢٥٨ م

ابتدأ هذا العصر أثناء خلافة القائم، وانتهى بوفاة المستعصم، وتميز بانتقال السلطان الفعلي إلى أيدي السلاجقة الأتراك الذين أقاموا في بلاد الجبل. كانت أوضاع الخلافة مع هؤلاء السلاجقة، أفضل منها مع بني بويه، لأنهم احترموا الخلفاء تديناً باختيارهم على مذهب أهل السنة وأبدوا لهم من مظاهر التعظيم والإجلال ما يقضي به منصبهم الديني.

لم يكن الخلفاء، خلال هذا العصر، على نمط واحد من القدرة والتصرف. فإنهم منذ عهد المسترشد شرعوا يستردون بعض نفوذهم الفعلي. واستقلوا بحكم بغداد والأعمال التابعة لها منذ عهد المقتفي، واستعادوا نفوذهم منذ عهد الناصر، واستقلوا بحكم العراق ومكثوا ستة وستين عاماً لم يخضعوا فيها لأي سلطان إلى أن قام المغول بتحركهم الواسع منطلقين نحو الغرب يحتلون الممالك ويدمرون المدن حتى وصلوا إلى بغداد فاحتلوها، وأسقطوا الخلافة العباسية.

ومثّل هذا العصر كل من الخلفاء: القائم، المقتدي، المستظهر، المسترشد، الراشد، المقتفي، المستنجد، المستضيء، الناصر، الظاهر، المستنصر والمستعصم.

من أوجه الاختلاف بين العصر الأول والعصور الأخرى من حياة دولة الخلافة العباسية، ظهور عنصر جديد هو العنصر التركي، وانتقال الخلافة من المركزية إلى اللامركزية في نظام الحكم، نتيجة قيام دول منفصلة إما انفصالاً تاماً كاملاً، أو ذاتياً مع الاعتراف بسلطة الخليفة.

وكان الفرس قد نقلوا نشاطهم إلى الشرق بعد ما تغلّب نفوذ الأتراك ونجحوا في إقامة دول انفصالية في بعض أقاليم الدولة العباسية. فقامت الدولة الطاهرية في خراسان (٢٠٥ ـ ٢٥٩ هـ/ ٨٢٠ ـ ٨٧٣ م)، وأسس يعقوب بن الليث الصفّار الدولة الصفّارية على أنقاض الدولة الطاهرية (٢٥٤ ـ ٢٩٨ هـ/ ٨٦٧ ـ ٩١١ م)، وأسس السامانيون دولتهم على أنقاض الدولة الصّفارية (٢٦١ ـ ٣٨٩ هـ/ ٨٧٤ ـ ٩٩٩ م)، وسقطوا في أواخر القرن الرابع الهجري، أي العاشر الميلادي. وحل محلهم الغزنويون وأقاموا الدولة الغزنوية (٣٥١ ـ ٥٨٢ هـ/ ٩٦٢ ـ ١١٣٦ م)، وسيطر البويهيون على فارس والعراق والأهواز وكرمان وأقاموا الدولة البويهية (٣٣٤ ـ ٤٤٧ هـ/ ٩٤٦ ـ ١٠٥٥ م)، وقضى الأتراك السلاجقة على الدولة البويهية في العراق، ودخل طغرلبك السلجوقي مدينة بغداد واستقل بها وأسس سلطانه على أنقاض سلطان البويهيين.